

الانتقال العمراني من المدينة إلى الحاضرة بالمغرب الأوسط

أ. ليبدري بلخير

قسم التاريخ كلية العلوم الإنسانية

و الاجتماعية جامعة تلمسان

Abstract :

This study sheds light on some of the important cultural areas in the middle age Maghreb which remained, for an essential period of time, the centre and source of all cultural, thoughtful and civilized enlightenment by which its effects extended to the whole land of the Islamic Maghreb.

عرفت بلاد المغرب الأوسط منذ مطلع القرن الثاني الهجري وانتهاء مراحل الفتح الإسلامي، حركية حضارية متعددة الجوانب والأوجه من السياسي إلى الاقتصادي إلى الاجتماعي والثقافي، ولعل خاصية المنطقة و موقعها الوسط جعلها تنصدر مجريات الوقائع التاريخية التي عرفت بها بلاد المغرب منذ انفصال الرستميين عن الخلافة العباسية حتى انتهاء عهد الزيانيين، مروراً بالفاطميين والحمايين، ولقد أفضت سيرورة الأحداث المتراكمة والمتتالية إلى تأشيرات عدة في شتى مناحي وصور الفعل الحضاري ونخص العمران واختطاط المدن بالذكر حتى لا تبقى الصورة القائمة للحروب والنزاعات ماثلة أمامنا بما تخلفه من دمار وخراب وكل ما ينجر عن النزاعات والخلافات السياسية والمنهجية. ولم يكن إقليم المغرب الأوسط في منأى عن هذه الأضرار ولكنه بالمقابل خرج منها برصيد حضاري يستحق الدراسة والتمحيص والمتابعة.

وبما أن المدينة التي يرمز اسمها إلى التمدن والتحضير والاستقرار دليل عند الأنظمة السياسية على السيطرة والتمكن من مقاليد الأمور وسط النفوذ كما هو دليل عند عامة الناس على النزوح إلى الحياة الاجتماعية وإثراء الحيز الجغرافي بحواضر ومعالم تكون شاهدة على مواكبة بانيتها وساكنها للأنماط العمرانية المشتركة معه في الزمان وربما المكان مهما اختلفت دوافع ومنطلقات صاحب الأمر في التشييد والعمارة والبناء.

ومن أجل التفصيل في الموضوع قدر الإمكان وتقديم أهم الحوافز المؤثرة وذات الشأن في بلاد المغرب الأوسط باعتبار مكانتها السياسية والاقتصادية مع مراعاة الفواصل التاريخية والاعتناء خاصة بالجوانب التي تبدو مهمة وتميز كل حاضرة عن الأخرى، وبهذا الشكل فإن إنجاز الموضوع مقترون بالسعي إلى التعرف أكثر على عواصم المغرب الأوسط المتعاقبة تعاقب الدول التي قامت بهذا النطاق الجغرافي الهام وسيطرت عليه وهذا وفق ترتيب تاريخي يخضع لتسلسل زمني معلوم.

والأهم من ذلك الإجابة على التساؤل الذي يتبادر إلينا حول معايير بناء المدن والحوضر، هل يخضع لعوامل تاريخية سياسية؟ أم اقتصادية واجتماعية؟ أم عسكرية واستراتيجية أم حضارية بحتة؟ أم أن التعمير يتم بصفة تلقائية دون مراعاة هذه العوامل؟ يبدو أن الحيز الحضاري والثقافي كان أهم مل ميز تلك الحواضر من المغرب الإسلامي.

1- تيهرت (تاهرت):

تعتبر مدينة تاهرت¹ أقدم مركز ثقافي في بلاد المغرب الأوسط، وقد كانت بها مكتبة عظيمة تضم بين جناحيها نحو ثلاثمائة ألف كتاب في مختلف الفنون والعلوم والآداب فقد كانت تحوي بين رفوفها كتب في علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وتوحيد، وكتباً في الطب واللغة والرياضيات والهندسة والفلك والتاريخ وغيرها من العلوم المختلفة².

ولم تكن كتبها مقتصرة على منصب بعينه بل كانت تضم كتباً لمختلف المذاهب الإسلامية، إلا أن المدينة لم تنل عناية الدول التي تعاقبت عليها بعد الرستميين باعتبارها من مخلفات الخوارج، غير أن عبد المؤمن بن علي وخلفاءه نشروا في تاهرت مبادئ الموحدين ونشطوا تحفيظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى تاهرت مذهب الإمام مالك بعد الموحدين كما انتشر بباقي مدن المغرب الإسلامي، كما أصبحت تاهرت مركزاً لتعليم اللغة العربية الفصيحة لما كثر اللحن في اللغة نظراً لطبيعة البلاد والمنطقة وهذا مواكبة لتعلم القرآن والحديث³.

ومن أشهر أعلام تاهرت النحوي محي الدين بن عمر المالكي التلمساني الذي ولد بتاهرت وتعلم بتلمسان، ثم سافر إلى مصر واستقر بالإسكندرية أين أخذ العلم عن جماعة من النحويين حتى صار شيخاً بهذا العلم وكان أحد الثلاثة المشهورين إلى جانب ابن مالك في دمشق وابن النحاس في مصر⁴.

أسسها الإمام عبد الرحمان بن رستم الفارسي الإباضي سنة مائة وستون للهجرة، وقد كان ابن رستم من العلماء المتمكنين في علوم الدين والأدب والفلك، وأصبحت تاهرت عاصمة الدولة الرستمية، انظم إليها إباضية المغرب بعد أن أعلنوا الولاء والتبعية لأئمتها⁵.

كانت تاهرت مسماة في القديم تيهرت باللغة البربرية بمعنى اللبؤة وقد كانت لها عدة تسميات تاقدمت، تاغزوت تنقارشيا والمدينة الحالية تقع على بعد ستة أميالا من تيارات المدينة الرومانية وقد وصف البكري مدينة تاهرت في القرن الخامس المجري بقوله : " ومدينة تاهرت مدينة مسورة لها أربعة أبواب : باب الصفا، باب المنزل وباب الأندلس وباب المطاحن، وهي في سفح جبل يقال له جزول، وإن لها لقصبة مطلة على السوق تسمى المعصومة وتقع على نهر يسمى هنية"⁶.

ازدهرت تاهرت وعرفت في الآفاق وشدت إليها الرحال للسكن والتجارة مما جعل الكتاب يقصدونها ويشيدون بها، ومن ذلك ما قاله المقدسي : " هي بلخ المغرب، قد أهدقت بها الأزهار، والتفت بها الأشجار وغابت في البساتين، ونبتت حولها العين وجل بها الإقليم، وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب ..."⁷

عرفت تاهرت بالزراعة، وكانت تكثر فيها البساتين وزراعة الحبوب والكتان والنخيل ومختلف الفواكه، والتين والزيتون، فكانت تدر على أهلها أرباحا طائلة، وأقيمت بها خزانات المياه والأحواض الكبيرة المحكمة التصميم والهندسة لكثرة أنهارها، وكذلك لادخار الماء أيام الجفاف بل إن الماء كان يصل إلى جميع بيوت تاهرت عبر القنوات⁸.

كما كانت تاهرت بلاد رعي وتربية الماشية، لكثرة المراعي الخصبة حولها، فكان أهلها يربون الغنم والبقر والجمال والخيول والحمير والبغال وكانت تجارها رائجة حيث تستغل في إنتاج الصوف وتصدر إلى الدول المجاورة لكثرتها، يقول ابن حوقل في وصف ماشية تاهرت وأحوازاها : "وهي أحد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال ... ويكثر عندهم العسل والسمن."⁹

ولم يقتصر النشاط الاقتصادي في تاهرت على الزراعة والتجارة بل تعداه إلى مجال الصناعة، فكثرت فيها الحرف كالتجارة والحدادة والطحن والخياطة والدباغة، وكذلك صناعة السفن والقوارب وصناعة الزجاج والفخار والتحف والعطور والخشب المنحوت والمخلوط والمرصع بالعاج أو الصدف.

وأیضا صناعات الحلي من الذهب والفضة، حتى أنها كانت تضرب منها الدراهم والدنانير، فكانت لها عملاتها الخاصة التي كشفت عنها الآثار.¹⁰

2- المسيلة:

لقد وقع اختلاف بين المؤرخين في تحديد تاريخ إنشاء مدينة المسيلة¹¹ فهناك من ذكر بأن الشروع في إنشائها كان سنة ثلاثمائة وثلاثة عشر للهجرة، ومن قال بهذا الرأي لم يذكر المناسبة التي أنشئت فيها¹².

وذهب البعض الآخر إلى أن تاريخ إنشائها يعود إلى سنة خمسة عشر وثلاثمائة للهجرة، وذلك حين توجه أبو القاسم محمد القائم على رأس حملة عسكرية لإخماد ثورة بالمغرب الأقصى، وأثناء رجوعه أمر بإنشائها، حيث خط برجه في الأرض صفة بنائها وهو راكب على فرسه وسماها بالمحمدية نسبة إليه وجعل لها بابين سمى أحدهما باب القاسمية وسمى الآخر باب الأمور¹³.

وكما هو واضح فإن هذا الرأي هو الراجح لأنه رأي جمهور المؤرخين، ولأنه أينما تضمن ذكر المناسبة التي أنشئت فيها المسيلة، وقد ذكر ابن عذارى بأن القائم توجه على رأس حملة عسكرية لإخماد ثورة بالمغرب سنة ثلاثمائة وخمسة عشر وبذلك يكون أثر ضمها ما ذهب إليه جمهور المؤرخين في هذه النقطة، كما قال بأن المهدي هو الذي أمر بنائها وسماها بالمحمدية¹⁴.

ولقد أمر والي المسيلة أن يكثر فيها من المؤن و يدخرها لوقت الشدة وبفضلها استطاع المنصور أن يتغلب على أزمة التموين أثناء ملاحقته لصاحب الحمار سنة ثلاثمائة وستة وثلاثون للهجرة، حيث كان الوقت عصيبا بسبب ظروف الحرب بالإضافة إلى بعده عن عاصمة دولته وبفضل تلك المؤن رجحت كفة المنصور وقضى على خصمه لأنه كان ينطلق منها ويزود فيها¹⁵.

تبعد المسيلة عن المهدية عاصمة الخلافة الفاطمية بستة عشر مرحلة وعن القيروان بأربعة عشر مرحلة، ومن هنا نلاحظ مدى البعد الشاسع بينهما وبين كل من المهدية والقيروان، ولذا عمد الفاطميون إلى بنائها لتكون قلقة لانطلاق جيوشهم لإخماد حركات الثائرين وبذلك يوفر على أنفسهم في المستقبل عناء تجهيز الجيوش من المهدية وإرسالها لإخماد حركات التمرد والوقوف في وجه خصومهم بصفة خاصة، وهي أقرب إلى تاهرت من طنبنة، حيث يمكن أن تستعمل كقاعدة لمراقبة تحركات الخوارج الإباضية و ضد تيار زناتة و كبح جماحها ورد خطرهما عن الجهات الشرقية¹⁶.

لقد بنيت المسيلة لأغراض استراتيجية عسكرية بالدرجة الأولى، وكان الحافز الذي دفع أبا القاسم إلى المبادرة بإنشائها، هو أنه لمس أثناء قتاله لزناتة مدى قوتها وصلابتها وكثرة عددها، فتوقع ازدياد خطرهما في المستقبل ولذا أسرع ببنائها لتكون قاعدة عسكرية لصدد تيار هذه القبيلة الخطيرة على الفاطميين ثم إنه بناها في وسط بعض بطونها و منهم بنو برزال¹⁷ وزندراج وهوارة وصدراتة ومزاتة¹⁸.

لما تم بناء المسيلة انتقل مركز الثقل إليها من مدينة طينة عاصمة الزاب القديمة، وأصبحت هي العاصمة السياسية و الإدارية والمركز التجاري والحضاري للمنطقة الممتدة ما بين باغاية شرقا وتيهرت غربا، فانتقل كثير من سكان المناطق المجاورة إليها واتسع عمرانها وراحت تجارتها وتنوعت وازدهرت أوضاعها من مختلف الجوانب، فأمرها رجال المال والأعمال وقصدها العلماء والشعراء من مختلف أنحاء المغرب وخارجه، ومن هؤلاء محمد ابن هانيء الأندلسي الذي مدح كل من جعفر بن علي بن الأندلسي وجعفر بن فلاح الأندلسي والمعز الفاطمي¹⁹.

لقد تمتعت المسيلة بقسط وافر من أسباب الحضارة والمدنية، وبذلك ساهمت مساهمة فعالة في إنعاش مختلف وسائل الحضارة بالمغرب الأوسط في عهد الفاطميين وإن أنشئت لأغراض عسكرية، وبقيت تتمتع بمكانة مرموقة بين مختلف مدن المغرب الهامة إلى أن بنيت قلعة بني حماد²⁰ في حدود سنة أربعمائة للهجرة، فانتقل مركز الثقل إليها تدريجيا وتضاءل شأن المسيلة الفاطمية²¹ وعلى هذا فإن أبا القاسم خشي من قوة الزناتيين وتكتلهم، فبنى هذه المدينة في وسطهم لكي يضعف شوكتهم ويفوق صفوفهم، وقد نقل بعض القبائل من أماكن بنائها إلى القيروان أو قربها وهم بنو كملان²² من قبيلة هواره لأنه أوقع الخطر منهم أكثر من غيرهم ولذا أحب أن يكونوا بالقرب منه، وفعلا لما قام صاحب الحمار بثورته كانوا في طليعة من أيده²³.

إن الذي تولى إنشاء مدينة المسيلة هو علي بن حمدون بن سمالك من منصور الجدامي المعروف بابن الأندلسي الذي خرج مع القائم في حملته العسكرية إلى المغرب الأقصى وخلاها جرب إمكانياته ودكاهه فوجده خادما مطيعا وأهلا لتحمل المسؤولية فكلفه ببنائها ولما انتهت الأشغال بها سنة ثلاثمائة وسبعة عشر جعله واليا عليها، فبقي وفيها مخلصا للفاطميين وسيفا مسلطا في وجه خصومهم إلى أن هلك في ثورة صاحب الحمار سنة ثلاثمائة وست وثلاثون للهجرة، فتولاها بعده ابنه جعفر إلى أن فسدت العلاقة بينه وبين المعز الفاطمي بسبب تفضيل هذا الأخير زيري بن مناد عليه، فقرر إلى زناتة نكاية في المعز، ثم التجأ إلى الأندلس واحتتمى بالأمويين خصوم الفاطميين.²⁴

3- قلعة بني حماد:

مدينة القلعة أو قلعة بني حماد²⁵ التي بناها الأمير حماد بن زيري بن بلكين في حدود عام ثلاثمائة وثمانية وتسعون للهجرة، ليعلن منها تأسيس الدولة الحمادية دولة مستقلة عن دولة بني زيري التي كان على إمارتها في ذلك الوقت باديس بن أبي المنصور بن زيري وهو ابن أخي حماد²⁶.

وتتميز قلعة بني حماد التي تقع في الحدود الشمالية لسهول الحضنة بموقعها الاستراتيجي الهام، فهي من الشمال محمية بجبل تافربوست ومن الغرب بجبل قرين ويحيط بها من الشرق واد يكل مضائقه صورا طبيعيا للمدينة أما من الجنوب فإن الطريق الوحيدة المؤدية إلى القلعة عبارة عن ثنية ملوية تتبع وادي فرج، و الظاهر أن السبب الذي اختير من أجله موضع القلعة قربها من مدينة المسيلة الواقعة في أسفل المرتفعات التي شيدت عليها القلعة من جهة ولأن المسيلة تشرف على طرق القوافل منذ العهد الفاطمي من جهة أخرى²⁷ قام حماد ببناء القلعة وتشيد أسوارها بالحجارة تتخلله أبواب هي باب المنان وباب جراوة وباب الأقواص ودام بنائها قرابة العامين ثم نقل إليها حماد الكثير من أهل المسيلة وحمزة (البويرة) وعمرها بقبيلة جراوة وأنزلهم بها²⁸ وفي هذا الصدد يشير ابن خلدون : "وشيد بناؤها وأسوارها واستكثر فيها المساجد والفنادق فاستحرت في العمارة واتسعت في التمدن..."²⁹

لقد بلغت حدود الدولة الحمادية أقصى اتساع لها في القرن الخامس الهجري، بحيث وصلت جنوبا أطراف الصحراء وشرقا إلى بلاد الجريد التونسية حينما تقلص نفوذ أبناء عمومتهم الزيرين إلى أحواز المهديّة ومن الناحية الغربية إلى أطراف تلمسان³⁰.

كما استفادت القلعة من اقتصاديات المدن والحواضر المحيطة في فلكها وهي مراكز تجارية ومعابر حيوية لحركة التجارة بين المغرب والمشرق وبين الشمال وجنوب الصحراء ببلاد السودان³¹.

فمدينة طنبنة على سبيل المثال كانت غنية بمحاصيلها الزراعية، وكانت تقع في مفترق الطرق الداخلية المؤدية بين الذاب والأوراس، ونقطة عبور بين القيروان وسجلمانية والمسيلة والقلعة³².

أما مدينة المسيلة فكانت هي أيضا منطقة زراعية متنوعة المنتوجات ومعروفة بتربية المواشي ومركز عبور للطرق الثلاثة بين الشرق والشمال والصحراء كما كانت ورجلان مرتبطة تجاريا ببلاد السودان، فكان تجارها يحملون إلى غانا منتوجات الشمال التي تصلهم بواسطة تجار قسنطينة والقلعة ويعودون محملين بالذهب والعبود وجلود الماعز المدبوغ والصمغ وغيرها من بضائع السودان³³ وبذلك أصبحت القلعة تسيطر على طريق الذهب بالمغرب الأوسط، فصارت بذلك قطبا اقتصاديا هاما وحاضرة تجارية حيوية بعلاقاتها التجارية والاقتصادية مع الحواضر والأقطار العديدة³⁴.

وظلت القلعة تستقبل الوافدين إليها من إفريقية والمغربيين الأوسط والأقصى ومن الأندلس وصقلية، فانتقلت إليها من القيروان جالية كبيرة من السكان والتجار وأصحاب رؤوس الأموال والحرف وطلاب العلم في السنة الخامسة بعد الأربعمائة للهجرة ولاسيما أثناء الحرب الباديسية الحمادية، ثم ازدادت عدد المهجرات بعد الغزو والهلاكي للقيروان، وانتقل إليها أقوام من مدن زيرية أخرى³⁵.

كما حول إليها من أهل تلمسان عدد كبير من خاصة القوم³⁶ وجاءها مهاجرون من الأندلس فارين من الحرب الأهلية بقرطبة والمعروفة بالفتنة البربرية في نهاية المائة الرابعة للهجرة والتي عاد من جرائها بعض أفراد عائلة زيري بن مناد، وانتقل إليها بعض سكان صقلية بعد غزو النورمان³⁷ فتطورت المدينة بسرعة بفضل هذه العناصر الوافدة، ولما تحمله من علم وثقافة وصناعة ومال حتى صارت القلعة "من أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا وأحسنها قصورا ومسكن وأعمرها فواكه وخصبا، وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سمينية وفلاحتها إذا أكثرت أغنت وإذا قلت كفت، فأهلها أبد الدهر شباع وأحوالهم صالحة"³⁸.

لقد كان الرخاء الاقتصادي الذي عرفته قلعة بني حماد في القرن الخامس هجري فأل خير على المدينة، بحيث جاء العلماء والأدباء وطلاب العلم والأطباء والحرفيون والتجار الذين فضلوا القلعة عن سائر المدن التي سبقتها في الميدان العلمي والثقافي كطينة وتاهرت والقيروان والأندلس³⁹.

إن ازدهار العلوم في القلعة وانتفاع سكانها بالعلم والمعرفة يعود الفضل إلى هؤلاء القادمين إليها علماء جاهزين اختاروا القلعة مقرا لهم لأنها أصبحت حاضرة سياسية لبني حماد من جهة ولأنها وفرت لهم ما لم توفره غيرها من مال واستقرار و أمن، فقد اعتنى بنو حماد بعاصمتهم ووفروا لها الحماية والاستقرار وشيدوا بها المؤسسات التربوية والعلمية من كتاتيب ومساجد ومعاهد، وأغدقوا على العلماء والأدباء وقربوهم إلى بلادهم وهيؤا لهم الجو المناسب لانطلاق الحركة الفكرية والعلمية بالمدينة⁴⁰ وهكذا ظلت القلعة حاضرة للعلم والثقافة و قبله للطلبة والدارسين وحملة العلم من المشرق والمغرب وسوقا تجاريا عامرا بالقوافل من مختلف الأصقاع، إلى أن حلت إلى أقاليمها وأحوازها قبائل بني هلال الذين ضيقوا عليها واحتلوا طرق التجارة المؤدية إليها، فخرجت السلطة المركزية منها وانتقلت إلى العاصمة الجديدة على الشاطئ وهي مدينة بجاية، مما جعل أهمية القلعة الاقتصادية والثقافية تنتقل شيئا فشيئا إلى العاصمة الحمادية الجديدة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري⁴¹.

ظلت قلعة بني حماد عاصمة الدولة الحمادية منذ عهد مؤسسها حماد الذي توفي سنة أربعمائة وتسعة عشر للهجرة وحتى عهد الناصر بن علناس بن حماد، مروا بعهود للقائد بن حماد ومحسن ابن القائد الذي لم يستمر أكثر من تسعة أشهر وعهد بلكين بن محمد بن حماد، والذي يمكن اعتباره عهدا انتقاليا بين عهدي محسن والناصر وذلك لما اكتنفه من أحداث داخلية⁴².

وقد اضطر الناصر بن علناس بن حماد إلى مغادرة القلعة والانحياز إلى الشاطئ، فأسس بجوار ميناء صلداي مدينة الناصرية وانتقل إليها سنة واحد وستين وأربعمائة للهجرة، ولما توفي الناصر بعد

عشرين سنة، واصل خلفه ما كان عليه من اهتمام بعمران المدينة ولاسيما ابنه المنصور الذي حل محله وكان معروفا بولعه بالبناء، فأسس المسجد الجامع وجدد القصور وتأنق في اختطاط المباني وإجراء المياه في الرياض والبساتين⁴³.

يقول ياقوت الحموي في وصف بجاية : "مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري في حدود عام أربع مائة وسبع خمسين للهجرة، بينها وبين جزيرة مرغنا في أربعة أيام كانت قديما ميناء فقط ثم بنيت المدينة من لحف جبل شاهق و في قبلتها جبال كانت قاعدة ملك بني حماد، وتسمى أيضا بالناصرية على إسم بانيها وهي مفتقرة إلى جميع البلاد لا يخصصها من المنافع شيء إنما هي دار مملكته، تركب منها السفن وتسافر إلى جميع البلاد و الجهات بينها وبين مدينة ميلة ثلاثة أيام"⁴⁴.

4- بجاية:

وصفت بجاية⁴⁵ بأنها دار هجرة العلماء، وذلك راجع إلى هجرتين أساسيتين، أما الأولى فهي هجرة رجال الفكر والأدب من قلعة بني حماد التي كانت دار علم وأدب ومعهدا لتعليم القرآن والحديث وتعليم العربية أما الهجرة الثانية فهي هجرة العلماء والمحدثين والأدباء من الأندلس فارين بينهم من محاكم التفتيش والاضطهاد الاسباني بعد سقوط دولة المسلمين هناك ويضاف إليها هجرة العلماء من القيروان والقروين وغيرها من الحواضر الفكرية، فشهدت بذلك مرحلة من التلاقح الفكري والتمازج الثقافي جعلت منها مركز الإشعاع الفكري في المغرب الأوسط⁴⁶.

ولم تكن بجاية قبلة للعلماء والمفكرين وحدهم بل كانت غاية طلاب العلم، يشدون إليها الرحال من كل حذب وصوب قاصدين علماءها ومعاهدها التي بلغت شهرتها الآفاق، كما لم يكن طلب العلم محصورا في الرجال دون النساء، فجامعة سيدي تواتي مثلا كان يؤمها في يوم من أيام بجاية ثلاثة آلاف طالب بينهم خمسمائة طالبة⁴⁷، ويذكر المؤرخون أن هناك أكثر من ألف امرأة كانت تحفظ المدونة التي كتبها الإمام سحنون في الفقه المالكي عن ظهر قلب كما تحفظ القرآن⁴⁸.

ولم يقتصر التوجه إلى بجاية على المسلمين وحدهم، بل لقد تعلم أهل بيزا الإيطالية صنع الشمع من مصانعها ونقلوه إلى بلادهم ومنها إلى أوروبا ولا يزال الشمع عندهم يسمى بوجي، مأخوذا عن إسم بجاية، كما أن العالم الرياضي الشهير فليونارد و بيزا، تتلمذ على أيدي علمائها⁴⁹.

لقد تخرج من بجاية أعلام كثيرون في الفقه والأدب والشعر والطب والرياضيات وغيرها، ورغم أن أبا العباس أحمد بن عبد الله الغبريني وضع كتابه الموسوم "عنوان الدراية" للترجمة لمشايخه من علماء

القرن السادس الهجري الذي يعد من أكثر قرون بجاية ازدهارا في الحياة العلمية والتعليمية إلا أنه لم يأت عليهم جميعا لكثرتهم⁵⁰.

وفي إطار الترجمة لأبي علي المسيلي الذي درس ببجاية، وولي القضاء عليها وجمع بين العلم والعمل، وعرف بأبي حامد الغزالي الصغير أشار الغريبي إلى حجم العلماء المجتهدين الذين قاموا على حل المسائل الشرعية الدقيقة فأورد قولاً لأبي علي المسيلي جاء فيه: "أدركت ببجاية ما ينيف عن تسعين عالماً (مفتياً) ما منهم من يعرف الحسن بن المسيلي"⁵¹ ومن الأمثلة على أعلام بجاية محمد بن إبراهيم المهدي الذي تلقى علم الكلام بعد رحلة إلى المشرق ثم عاد ليدرس بالمغرب وتولى قضاء ببجاية غير مرة وكذلك أبو بكر الصنهاجي الذي ينبغ في التاريخ والمفسر موسى بن الحاج بن أبي بكر الأشيري.⁵²

5- تلمسان:

إن تاريخ مدينة تلمسان⁵³ مفعم بالأحداث والتراث، عرفت الاستقرار البشري منذ آلاف السنين، وتقلدت عدة أسماء منها: بوماريا وأكادير وتلمسان، ومنذ دخولها في دائرة الإسلام والعروبة في عهد أبي المهاجر دينار من خمسة وخمسين إلى ستين للهجرة ومرور عقبة بن نافع القائد سنتي اثنتين وستين إلى أربعة وستين للهجرة إلى استقرار موسى بن نصير بها قرابة العشر سنوات من السنة السادسة والثمانين إلى الخامسة والتسعين للهجرة الذي تخلله بناء مسجد ودار للإمارة حتى اتخذ منها طارق بن زياد مسكناً مفضلاً له يقيم فيه مع أسرته وجنده على حدود ولاية طنجة الشرقية يدير منها شؤون المنطقة الغربية لبلاد المغرب، وفيها استقبل ابنتي الكونت يوليان حاكم سبتة⁵⁴.

فأصبحت تلمسان بالنسبة للمغرب الأوسط كالقيروان بالنسبة لإفريقية، لأنها تتمتع باستراتيجية عسكرية وسياسية واقتصادية مميزة⁵⁵ لقد تحولت مدينة تلمسان إلى مدينة إسلامية و اضطبغت فيها الحياة الثقافية بالصبغة الإسلامية، و لعل أهم حدث ثقافي عرفته تلمسان مطلع القرن الثاني الهجري فهو تسرب المذهب الخارجي الصفري إليها.

لقد كان لأهل تلمسان ورجالها السهم الأكبر في فتح الأندلس إلى جانب طارق بن زياد⁵⁶ وفي القرن الثاني الهجري، أصبحت، تلمسان عاصمة إمارة مستقلة عن الدولة الأموية في دمشق ثم العباسية في بغداد، استقل بها زعيم قبيلة مغيلة أبو قرّة المغيلي الزناتي الذي استطاع أن يوفر الحماية لعبد الرحمن الداخل الأموي الطريد الشريد من المشرق أثناء إقامته في بلاد المغرب وقصد له المساعدة للاستيلاء على إمارة الأندلس سنة مائة وثمانية وثلاثون هجري بالرجال التلمسانيين⁵⁷.

تقع مدينة تلمسان على ارتفاع ثمانمائة وثلاثين مترا فوق سطح البحر وتحيط بها جبال وهضاب صخرية ومرتفعات قرارة ولالة ستي وسبع شيوخ وتاسلة⁵⁸، وتشرف على سهول خصبة شاسعة تحيط بها مثل : سهول الحناية وسهول لالة مغنية وغيرها، ولاتبعد كثيرا عن البحر بحيث لها منافذ عليه عديدة مثل ميناء هنين ووهران وأرشقول⁵⁹.

كما يتوفر موقع تلمسان على المسطحات المائية، بحكم التكوينات الجيولوجية التي تخزن كميات هائلة، فضلا عن الأودية التي تمر بها وبضواحيها مثل : وادي متشكانة ووادي الوريث ووادي الصفصاف ووادي يسر⁶⁰.

لقد جعلها موقعها المتميز تفتح أبوابها للتجارة الخارجية والداخلية، من المغرب والمشرق وأوروبا وبلاد السودان لأنها تقع في مكان تقاطع الطريقين التجاريين الهامين في بلاد المغرب الأول هو الطريق الرابط بين الشرق والغرب الذي يمر عبر شلف ثم تلمسان نحو فاس والثاني يربط بين الشمال والجنوب عبر مدينة فجيج وتوات نحو سجلماسة وبلاد السودان⁶¹.

ورغم وقوع تلمسان في منطقة ريفية غلب عليها الطابع البدوي آنذاك يقطنها قبائل زناتية وعربية، فإنها صارت مركزا حضاريا هاما وحاضرة معرضة لأطماع الغزاة من الشرق والغرب ومن وراء البحر⁶².

ثم انتقل حكم مدينة تلمسان وإقليمها إلى زعيم قبيلة تلمسان أخرى بقيادة محمد بن خزر المغراوي الزناتي سنة مائة وسبعون للهجرة، وحكمها الأدارسة في مراحل من تاريخها ابتداء من سنة ثلاث وسبعين ومائة للهجرة⁶³.

وأيام الدولة الفاطمية في حدود النصف الأول من القرن الرابع الهجري انتقل حكم مدينة تلمسان إلى أمراء محليين من مغراوة وبني يفرن الزناتيين وتداولوا على حكمها وقيادتها. وأعلنوا ولاءهم للخليفة الأموي عبد الرحمان الناصر الأندلسي سنة ثلاثمائة للهجرة وحلوا طاعة الفاطميين الشيعة في المهديّة فسبقت بذلك الزيرين والحمادين، بنحو قرن من الزمن والمرابطين بنحو قرن ونصف في إعادة الاعتبار للمذهب السني المالكي في هذه المنطقة⁶⁴.

وممجيء المرابطين استفادت تلمسان حين تشييد مدينة جديدة محاذية لمدينة أكادير القديمة، وتربطها جسور من الناحية الغربية، وأطلقوا عليها اسم "تكارارت" وجعلوها مقرا لحكم الوالي وحاشيته والقائد العسكري وجنوده، وعاصمة إقليمية لهم بقيادة يوسف بن تاشفين سنة أربعمائة وثلاث وسبعون للهجرة⁶⁵ كما هيأ لها الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي الندرومي، المناخ الملائم لكي تتبوأ مركزا

إقليميا هاما له وزنه السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي ومكانة مرموقة في المغرب الأوسط منذ الإستيلاء عليها سنة سبع وأربعين وخمسمائة للهجرة⁶⁶.

تمكنت الحياة العلمية في تلمسان من التقدم أشواطا عديدة بعدما أنشئت المدارس التي احتضنت العلم وترأسها علماء كبار وأصبحت تلمسان بعد ذلك موطنًا لطلبة العلوم النقليّة و العقليّة على حد سواء، فقد ذكر منصور بن عبد الله الزواوي البجائي عن رحلته إلى تلمسان بقوله: "ثم ثنيت العنان لتوجهي إلى تلمسان راغبا في العلوم العربية والفهم الهندسية والحسابية" وهي إشارة واضحة إلى السعة العلمية الطبية لتلمسان⁶⁷.

ولقد صور ابن خلدون الحالة العلمية بتلمسان بعبارة حدد فيها مظاهر الحضارة المادية والأدبية بقوله: "ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع والصروح بها و بالآجر والقرميد تعلو وتشاد ورحل الناس إليها من القاصية"⁶⁸ وفي المرحلة التي تلتها، نمت العلوم وازدهرت، وكثر المشتغلون بها حتى صارت تلمسان، عاصمة من عواصم العلم تضاهي حواضر الإسلام العريقة كالقاهرة وبغداد وقرطبة وأصبحت أكبر أمصار المغرب⁶⁹.

غير أن أبا القاسم سعد الله يقول أن الأمر لم يكن يعدو في كثير من الأحيان والعلوم سوى عمليات النقل أو الشرح التي استمرت بعد ذلك معطية مسحة ثقافية ظاهرها علمي وباطنها اجترار للعلوم السابقة وتقديس لها، ولم يكن الإنتاج الفكري يتميز في الحقيقة بأي صبغة جديدة⁷⁰.

كما اشتهرت تلمسان في عهد السلطان أبي حمو الثاني بعلو كعب علمائها حتى صاروا قبلة لعلماء افريقية والأندلس في الفنون وما أشكل من مسائل علمية في المفقود والمعقول واستمرت الحياة العلمية متدفقة بتلمسان في القرن التاسع الهجري حيث لازالت سمعتها العلمية مؤثرة في الأندلس: ذلك أن الطلبة الأندلسيين كانت لهم همّة عالية للتزويد بالعلوم المختلفة⁷¹.

الخلاصة

يتضح مما سبق أن إقليم المغرب الأوسط عرف عدة مدن وحواضر تعاقبت على رياسته وزعامته وفق منطق القوى الحاكمة والمسيطر عليها بدءاً بالرسّامين ومروراً بالفاطميين الذين سيطروا بالكامل على كافة بلاد المغرب الإسلامي، ثم الحمّادين الذين دان لهم المغرب الأوسط حتى مشارق الصحراء وانتهاء بالعهد الزياني الذي احتكر النفوذ في الجهة الغربية من المغرب الأوسط إلى أزمنة متأخرة من التاريخ الوسيط ومن جهة أخرى تبدو هذه المدن وكأنها توارثت الزعامة السياسية والمكانة الاقتصادية والرحم الثقافي ربما باستثناء المسيلة الفاطمية بحكم طبيعة الدولة الفاطمية التي حكمت بلاد المغرب بسياسة القوة المطلقة وحاولت صبغه بصبغتها، وتجلّى ذلك واضحاً في مدنها في إفريقية كالمهديّة عاصمتهم الأولى والمنصورية وانسحب الأمر على المسيلة التي كانت أقرب إلى حصن عسكري منه إلى مدينة رغم ما عرفته في بعض فترات ازدهار وعمران ويلاحظ كذلك ما يعمل عليه مؤسسو المدن ورؤساءها من استقطاب الأهلين والوافدين من مختلف الأقطار والأمصار ومختلف الفئات والمرتبات لإعمار المدن وإعطائها مظهر الحاضرة الأولى أو العاصمة في بلاد المغرب الأوسط وكذلك لا يجب إنكار أن مختلف المدن التي ورد ذكرها تلتقي في نقطة أساسية وهي تشابه النمط المعماري وشكل العمران تحت عنوان واحد يجمعها رغم اختلاف المواقع والبيئة الجغرافية ودوافع التأسيس والأنظمة الحاكمة فهي تشترك في الطراز العمراني الإسلامي بشقيه المغربي والمشرقي وهو بالكاد ما يجمعها ضمن منظومة واحدة هي الحضارة العربية الإسلامية.

الإحالات

- 1- أو تيهرت: مدينة مشهورة من مدن المغرب الأوسط أسسها الرستميون، تقع على طريق المسيلة من تلمسان، بينها وبين المسيلة غربا ست مراحل تعرف بالحدثة تميزا لها عن القديمة: لابن حوقل أبو القاسم النصبي: كتاب صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د.ت)، ص، 86. تاهرت الحديثة في قبليها لواتة وهوارة و غربيها زواغة و بجنوبها مطماطة و زناتة و مكناسة. انظر الحميري محمد عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، المصدر السابق، ص، 126. تاهرت بفتح التاء وسكون الراء إسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لأحدها تاهرت القديمة و للأخرى تاهرت الحديثة بينها وبين المسيلة ست مراحل و هي بين تلمسان و قلعة بني حماد ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص 7،.
- 2- فاروق عمر فوزي: التاريخ الإسلامي و فكر القرن العشرين، دراسات نقدية في تفسير التاريخ، مؤسسة المطبوعات الجامعية، بيروت، 1980 م، ص ص، 20، 21.
- 3- بونار رابح: المغرب الكبير تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ت، ط2، ص ص، 86، 87.
- 4- محمود إسماعيل عبد الرازق: المرجع السابق، ص ص، 294، 298.
- 5- مرمول محمد الصالح: السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص، 298.
- 6- ديبوز محمد علي: تاريخ المغرب الكبير، ج3، دار إحياء الكتب العربية، 1964 م، ص، 267.
- 7- الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، ج1، دار الثقافة، بيروت، 1980 م، ط4، ص ص، 166، 167.
- 8- محمود إسماعيل عبد الرازق، الخوارج في المغرب الإسلامي حتى منتصف القرن الرابع هجري، ط2، دار الثقافة، المغرب، 1985 ص ص، 152، 153.
- 9- محمود إسماعيل عبد الرازق، المرجع السابق، ص ص، 273، 275.
- 10- الجيلالي عبد الرحمن، المرجع السابق، ص، 175.
- 11- محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص، 283.
- 12- و هي مدينة استحدثها علي بن الأندلسي احد خدم آل عبيد و عبيدهم... و عليها من البربر بنو برزال وبنو رانداج و هوارة و مزاتة وعليهم صدقات وخراج غزير. ينظر إسماعيل العربي: المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 163.

- 13- و يقول عنها البكري،، مدينة جليلة على نهر يسمى سهر، اسسها اسماعيل بن أبي القاسم بن عبد الله سنة ثلاثة عشر و ثلاثمائة و كان المتولى لبنائها علي بن حمدون بن سمالك بن مسعود بن منصور الخزاعي، المعروف بالاندلسي. إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص، 164.
- 14- و يقول عنها حسن الوزان. مدينة عتيقة بناها الرومان في تخوم صحراء نوميديا على بعد نحو مائة و أربعين ميلا من بجاية... والسكان كلهم صناع او فلاحين، يرتدون لباسا رديئا لفقرتهم بسبب جيرانهم الاعراب الذين يسلبونهم مداخلهم و ملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب.حسن الوزان، المصدر السابق، ص، 52.
- 15- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، ج1، تحقيق ح س كولان وألفي بروفنسا، بيروت، ت، ص، 190.
- 16- ابن خلدون، العبر. ج4، دار الكتاب اللبناني، 1267 ص، 251.
- 17- ابن عذارى المراكشي: المصدر السابق، ص، 191.
- 18- الإدريسي: وصف إفريقيا الشمالية و الصحراوية، نشر هنري بريس، الجزائر 1957 ص، 156.
- 19- مرمول محمد الصالح: المرجع السابق، المرجع السابق، ص، 298.
- 20- كتب الأستاذ إبراهيم فحار: بحثا موسعا عن بني برزال المسيلة و احتمال هجرة البعض منهم الى البرازيل وتسمية البرازيل باسمهم مجلة الثقافة، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، 1974، عدد 20، ص، 30 وما بعدها.
- 21- مرمول محمد الصالح: المرجع السابق، ص، 297.
- 22- الحموي ياقوت: معجم البلدان، ج5، ص، 130.
- 23- تقع على جبل يسمى تافسوت، وهي قاعدة ملك بني حماد الصنهاجيين تبعد عن مسيلة حوالي اثنا عشر ميلا وبينها وبين بسكرة مرحلتان و بينها وبين سطيف ثلاث مراحل، الحموي ياقوت، المصدر السابق، ج4، ص، 390.
- 24- مرمول محمد الصالح: المرجع السابق، ص، 299.
- 25- أطلق عليهم ابن الاثير بنو كملان، الكامل في التاريخ، ج6، دار الكتاب العربي، بيروت، 1968م، 135.
- 26- ابن خلدون: المصدر السابق، ص، 82.
- 27- ابن عذارى : المصدر السابق، 215.
- 28- يقول عنها البكري: هي قلعة كبيرة ذات منعة و حصانة و تمصرت عند خراب القيروان، انتقل إليها أكثر أهلها من إفريقيا. و هي اليوم مقصد التجار و بها تحل الرحال من العراق و الحجاز و الشام و سائر بلاد المغرب. أما الإدريسي فيقول: القلعة من اكبر البلاد قطرا و أغزرها خيرا و أوسعها أموالا و أحسنها قصورا ومسكن. أما ياقوت الحموي فيقول عنها: قلعة عظيمة تشبه في التحصن ما يحكى عن قلعة انطاكية و هي

- قاعدة ملك بني حماد بن يوسف الملقب ببلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي البربري. و هو أول من أحدثها في حدود سنة 370 هـ. و هي قرب أشير، إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص، ص، 167، 168.
- 29- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص، 227.
- 30- البكري: المغرب في وصف إفريقية و المغرب، مارس 1911م، ص، 49.
- 31- ابن خلدون: المصدر السابق، ص، 227.
- 32- نفسه: ص، 227.
- 33- فيلاي عبد العزيز: المرجع السابق، ص، 72.
- 34- مراجع عقيلة: قيام الدولة الموحدية، دار الكتب الوطنية، ليبيا، 2008، ط2، ص، 40.
- 35- الهادي روجي إدريس: بلاد البربر في العهد الزيري، ج2، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص، 90.
- 36- مجاز إبراهيم: الدولة الرستمية، الحياة الفكرية و الإقتصادية، المطبعة العربية، غرداية، د ت، ص، 222.
- 37- البكري: المصدر السابق، ص، 49.
- 38- فيلاي عبد العزيز: دراسات في تاريخ الجزائر و الغرب الإسلامي، دار الهدى، الجزائر، 2012م، ص، 74.
- 39- طمار محمد: الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، م1983، ص، 136.
- 40- فيلاي عبد العزيز: المرجع السابق، ص، 74.
- 41- فيلاي عبد العزيز: المرجع السابق، ص، 78.
- 42- طمار محمد: المرجع السابق، ص، 120.
- 43- ابن خلدون: المصدر السابق، ص، 358.
- 44- مراجع عقيلة: المرجع السابق، ص، 34.
- 45- ابن خلدون: المصدر السابق، ص، 357.
- 46- الحموي ياقوت: المصدر السابق، ج2، ص، 164.
- 47- مدينة عتيقة: بناها الرومان على ما يراه بعضهم، في منحدر جبل شاهق على ساحل البحر الأبيض المتوسط، دورها كلها جميلة و فيها جوامع كافية و مدارس يكثر فيها الطلبة و أساتذة الفقه و العلوم بالإضافة الى الزوايا المتصوفة حسن الوزان، المصدر السابق، ص، 50. أسسها الفينيقيون و سموها صلدة ثم احتلها الرومان و دعوها صلدائي، وخرّبها بعد ذلك الواندال و البربر الى ان جددتها الناصر الحمادي عام 468 هـ/1076 م و دعاها الناصرية الحميري محمد بن عبد المنعم المصدر السابق، ص ص 80-81

- يحي بوعزيز: مركز بحاية الحضاري: مجلة الحضارة الإسلامية ع1، أبريل 1993، ص، ص، 15، 16. أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، 1350 / 1931 هـ. ص، ص، 196، 197.
- 48- طمار محمد: المرجع السابق، ص، 243.
- 49- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، د ت، ص 788.
- 50- الميلي محمد: تاريخ الجزائر القديم و الحديث، ج 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ت، ص، 234.
- 51- طمار محمد: المرجع السابق، ص، 243.
- 52- الكعك عثمان: موجز التاريخ العام للجزائر، دار الغرب الإسلامي، 2003م، ط 1، ص، 120.
- 53- سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا في العصور الوسطى، ج 2، القاهرة، 1959م، ص، 43.
- 54- نفسه: ص، 91.
- 55- تلمسان مدينة كبيرة و هي عاصمة المملكة: لم يذكر التاريخ مؤسسها وكل ما يقال انها كانت مدينة صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب أرشكول و قد توسعت أيام بني عبد الواد، وبلغت درجة عالية من الإزدهار حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 17- 22. تلمسان عبارة عن مدينتين احدهما قديمة، وهي المدينة المشهورة كان عليها سور و قصور و بها منازل عديدة وتدعى أغادير، ومدينة حديثة أسسها المرابطون تسمى تاقرارت، اليعقوبي: المصدر السابق، ص، 116.
- 56- طمار محمد: المرجع السابق، ص، 72.
- 57- فيلاي عبد العزيز: المرجع السابق، ص، 170.
- 58- فيلاي عبد العزيز: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس و دول المغرب، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982، ص، 70.
- 59- فيلاي عبد العزيز: دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي، ص، 171.
- 60- فيلاي عبد العزيز: مرجع سابق، ص، 165.
- 61- الحسن الوزان: المصدر السابق، ص، 16.
- 62- طمار محمد: تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للفنون الطبيعية، 1984، ص، 79.
- 63- أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص ص 201-205.
- 64- فيلاي عبد العزيز: مرجع سابق، ص، 165.
- 65- ابن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص، 157.
- 66- ابن عذاري: المصدر السابق، ص، 222.
- 67- ابن خلدون: المصدر السابق، ص، 158.

- 68- فيلاي عبد العزيز: مرجع سابق، ص، 177.
- 69- قريان عبد الجليل: التعليم في تلمسان في العهد الزياني، دار جصور للنشر و التوزيع، 2011، ص، 342.
- 70- ابن خلدون: المصدر السابق، ص، 93.
- 71- قريان عبد الجليل: المرجع السابق، ص، 342.
- 72- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1 ، من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري، المؤسسة الوطنية للكتاب 1985 ط2، ص 27.
- 73- المدني أحمد توفيق: المرجع السابق، ص، 83.